

أستغل الإمام (عليه السلام) بعض الانفراج السياسي الذي شهده عصره من أجل بناء وتوسيع القاعدة الشعبية وتسليحها بالفكر السياسي السليم المنسجم مع رؤية أهل البيت(عليهم السلام) لهذا لم تنطلق أي ثورة علوية في عهده لعدم إكتمال شروطها من حيث العدة والعدد، وكان للإمام بعض المواقف السياسية الصريحة من بعض الحكام لإعادتهم الى جادة الصواب، ولقد تجلّى دوره الإصلاحي في الممارسات التالية:

١. الدعوة الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهما يتحرر الإنسان والمجتمع من ألوان الانحراف والعاطفة والسلوك، ولقد جاءت تأكيدات الإمام على هذه الفرضية التي جعلها شاملة لجميع الحياة الإنسانية كما وحذّر من مغبة التخلي عن المسؤولية ومداهنة المنحرفين حكماً كانوا أم أفراد وقال: ((الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله عزّ وجل، فمن نصرهما أعزّه الله، ومن خذلهما خذله الله عزّ وجل)).

٢. نشر المفاهيم السياسية السليمة:

عندما وجّه الإمام(عليه السلام) الأنظار الى دور أهل البيت (عليهم السلام) في قيادة هذه الأمة من الابتعاد عن نهجهم وحثّ على تصرفهم ووضوح حدود المواولة لهم. وأكد على أن طرق تولي الإمام لمنصب الإمامة منحصر بالنص والوصية ولا عبء لما هو شائع من البيعة والعهد والغلبة وبين مواصفات الإمام لكي تتمكن الأمة من التمييز والتشخيص في خضمّ الأحداث والمفاهيم المنحرفة فقال(عليه السلام):((إنّ الإمام لا تصلح إلا لرجلٍ فيه ثلاث خصال((ورع يحجزه عن المحارم، وحلم يملك به غضبه، وحُسن الخِلافة على من ولي، حتى يكون له كالوالد الرحيم)). كما بين المفهوم الحقيقي للتشيع لكي لا يعطي مُبرراً للحكام الامويين لتشويه سمعة أنصار أهل البيت، واستغلال بعض السلبيات للطعن في مفاهيم الولاء والتولي فقال(عليه السلام):

((فو الله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون إلا بالتواضع، والتخشّع، والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والبر بالوالدين، والتعاهد للجيران.... وكانوا أمناء عشائهم في الأشياء)).

إذن فالتشيع ليس إدعاء بل هو ممارسة علمية محسوسة في الواقع، والشيعي هو مثال التدين والإخلاص والطاعة لله.

٣. فِضِحِ الْوَأَقِعِ الْإِمَوِي:

كشّف الإمام (عليه السلام) حقيقة الحكم الاموي، وكيفية وصوله الى الحكم، ووضح الجرائم التي ارتكها سلف هؤلاء الحكام في حق أهل البيت وانصارهم، فقال الإمام الباقر(عليه السلام): ((فقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكان من يذكر بعبنا والانقطاع إلينا سُجِنَ أو نُهِبَ ماله، أو هُدِّمَت داره، ثم لم يزل البلاء يشتدُّ ويزداد الى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين(عليه السلام). ثمّ جاء الحجاج فقتلهم كل قتله وأخذهم بكل ظن وتهمة حتى أن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحبُّ إليه من أن يُقال: شيعة علي...)).

٤. الدعوة الى مقاطعة الحكيم القائم:

دعا الإمام (عليه السلام) الى مقاطعة الحكيم الجائر ونهى عن إسناده بأي شكل من أشكال المساندة، ووضح أساسيات التعامل مع الحكام الجائرين وأكد على أن تكون العلاقة معهم علاقة التوجيه والإرشاد والقيام باداء مسؤولية الوعظ، وأستثنى من ذلك المواقف التي تتخذ من أجل مصلحة الاسلام الكبرى، فجوز إسنادهم بالسلاح إذا كان القتال مع أعداء الاسلام.

٥. مواقفه المباشرة مع الحكام المنحرفين:

بما أن الإمام هو القدوة ومن أهم واجباته إصلاح الحاكم والأمة معاً، فقد اختلفت مواقفه (عليه السلام) في هذا الدور تبعاً للعوامل والظروف السياسية المحيطة به، من حيث المصلحة الاسلامية العامة أو المصلحة الخاصة ومن حيث قوة الحاكم وقوة القاعدة الشعبية لأهل البيت، ولقد كانت التقية أسلوباً يتخذه الإمام في مواقفه من الحاكم الجائر عندما لا تكون المواجهة العلنية مفيدة ومثمرة وأوضح حدودها بقوله: (( التقية في كل ضرورة))، واختلف دوره التوجيهي في زمن عمر بن عبد العزيز حيث الحرية النسبية فقام في إصلاح وتوجيه الحاكم واجهزته وحثّه على الاستقامة في التعامل مع الرعية أما في عهد هشام بن عبد الملك فقد كان يتحرك تبعاً لمواقف هشام من حيث اللين والشدة.

٦. موقفه من الثورة المسلحة:

وقف الإمام(عليه السلام) موقف الحياد من الثورات التي قادها الخوارج فلم يصدر منه تأييد ولا معارضة لكي لا يستثمر قادة هذه الثورات أو الحكام موقف الإمام لصالحهم ولكي تسنم روح الثورة في النفوس، ولم تنطلق أي ثورة علوية في عهده ولا لأحدٍ من أنصارهم لأن الإمام(عليه السلام) كان مشغولاً ببناء وتوسعة القاعدة الشعبية في الوقت نفسه كان يوجه الأنظار الى ثورة أخيه زيد التي أخبر أنها ستنتقل في المستقبل القريب، وكان هو(عليه السلام) الموجه لحركة أخيه زيد، وتفجرت ثورة زيد بعد أقل من عشر سنين من استشهاد الإمام الباقر(عليه السلام).

#### رابعاً / الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي:

بذل الامام محمد الباقر(عليه السلام) عناية فائقة لإصلاح الأخلاق وتغيير الأوضاع الاجتماعية باتجاه القواعد والموازن والقيم العليا في الشريعة الإسلامية، وكانت مهمته إصلاح الجميع بدءاً بالمقربين منه ثم الأوساط الاجتماعية ثم المؤسسات الحكومية واتباع الحاكم لهذا تعددت أساليبه الإصلاحية والتغييرية في المجالين الأخلاقي والاجتماعي، أما أبرز نشاطاته في هذا المجال:-

#### ١. الدعوة لتطبيق السنة النبوية:

قام الإمام(عليه السلام) بنشر الأحاديث النبوية المرتبطة بالجوانب الأخلاقية والاجتماعية لكي تكون نبراساً لأفراد المجتمع بمختلف طبقاته وتنطلق بهم نحو السمو والتكامل وكان يؤكد الامام(عليه السلام) على صلاح الفقهاء والأمرء لأنهما الركيزة الأساسية في صلاح الأخلاق والأوضاع الاجتماعية فقد روى(عليه السلام) قول جده محمد (ص):((صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدوا فسدت أمتي، الفقهاء والأمرء)).

وأكد على دعوة جده محمد (ص) الى العفة وتعجيل الخير بقوله:((إن الله يحب الحلي العفيف المتعفف)) و ((إن الله يحب الخير ما يعجل)) كما أكد على الأحاديث الداعية الى حسن الخلق والكف من أعراض المؤمنين، ودعا الى إدخال السرور على المؤمن وحث على حسن الخلق وحث على صلة الرحم بقوله محمد(ص):((أن عمل الخير ثواباً صلة الرحم)) وذكر(عليه السلام) عشرات الأحاديث الشريفة التي تدعو الى مكارم الأخلاق في الصدق والإيثار والتعاون والوفاء بالعهد وغيرها إضافة الى أحاديث النهي عن الممارسات السلبية كالكذب والبهتان والغيبة والخيانة ونقض العهد وغيرها.

وكان الامام الباقر(عليه السلام) يقوم باداء القدوة في ذلك بنفسه في جميع المكارم والمأثر فكان في سلوكه نموذجاً من أرق نماذج الخلق الاسلامي الرفيع، فكانت معالجته للواقع معالجة عملية من خلال سلوكه النموذجي مع مختلف أصناف الناس موالين أو مخالفين.

#### ٢. الدعوة الى مكارم الأخلاق:

إن مكارم الأخلاق هي العلامة الفارقة للتعامل بين المسلمين، فكان(عليه السلام) يدعو الى إفشاء السلام وهو مظهر من مظاهر روح الإخاء والود في العلاقات الاجتماعية، ودعا الى العفة أعتبرها افضل العبادات والى تطهير اللسان وتقيدته بقيود شرعية لإدامة العلاقات بين الناس وأعطى قاعدة مهمة في كيفية التعامل مع مختلف طبقات المجتمع بقوله: ((صانع المناق بلسانك، وأخلص مودتك للمؤمن، وإن جالسك يهودي فأحسن مجالسته)).

كما دعا الارتباط بأهل التقوى وتعميق أو اصر العلاقات معهم، ووضّح بعض حقوق المؤمن على المؤمن وهي كثيرة ومنها:((إن المؤمن أخ المؤمن لا يشتمه ولا يجرمه ولا يسيء الظن)).

وحذّر من ظلم الآخرين أو الإعانة على ظلمهم ودعا الى مقابلة الإساءة والقطيعة بالإحسان والصلة فقال (عليه السلام): ((ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة: أن تعفو عن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلم إذا جهل عليك)).

#### خامساً / الإصلاح الاقتصادي:

بما إن الإمام (عليه السلام) كان بعيداً عن السلطة حتى يستطيع إصلاح الأوضاع الاقتصادية إصلاحاً جذرياً، لذا أقتصر على نشر المفاهيم الإسلامية المرتبطة بالحياة الاقتصادية السليمة والتي تعصم مراعاتها الإنسان والمجتمع من الانحراف الاقتصادي ومن إشباع الشهوات، فحدد الاهداف المتوخاة من التصرف بالأموال التي جعلها الله سبحانه وتعالى الوسيلة لتحقيق الهدف الذي خلق الإنسان من أجله وهو الوصول الى عبادة الله وتطبيق منهجه في الحياة فقال (عليه السلام): ((يَعْمُ العون في الدنيا على طلب الآخرة)) وقال أيضاً: ((من طلب الرزق في الدنيا استعفاً عن الناس وتوسعاً على أهله وتعطفاً على جاره لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر)).

وأكد على حرمة جملة من التصرفات المالية كالتطيف في المكيال ودعا الى استصلاح المال وتنمية الثروة بشكل صحيح، وقدم إشباع حاجات المسلمين وسد ثغرات حياتهم على أهم العبادات المستحبة وهو الحج تطوعاً، ودعا الى الترفع عن الحرص والطمع ووجه الأنظار الى الآثار السلبية التي يخلفها الطمع كما حث على القناعة لأنها إحدى مقدمات السعادة الروحية، ودعا الى مراعاة القصد والوسطية وتجنب الإفراط والتفريط في الصرف والانفاق في مختلف الظروف وأعتبره من المنجيات فقال(عليه السلام):((أما المنجيات فخوف الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقرة)).

ومن أجل تحقيق التوازن الاقتصادي ورفع المستوى المعاشي لعموم الناس دعا الإمام الباقر(عليه السلام) الالتزام بالانفاق الواجب((إن الله تبارك وتعالى قرن الزكاة بالصلاة... فمن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فكأنه لم يقم الصلاة))، وبين الآثار السلبية لمنع الزكاة فقال:((وجدنا في كتاب علي(عليه السلام) قال رسول الله محمد (ص): إذا منعت الزكاة منعت الأرض بركاتها))، وحدد حدود البذل بأنه الايصال الى مرتبة إغناء الفقير لإنقاذه من الفقر وآثاره السلبية والنفسية بقوله (عليه السلام):((إذا أعطيتُه فأغنته)).

ولا يتحقق التوازن الاقتصادي ولا التكافل الاقتصادي إلا بإشراك جميع الناس في ممارسات مكثفة لرفع المستوى الاقتصادي لجميع الفقراء والمعوزين.

وكان (عليه السلام) يقوم بإنفاق ما يحصل عليه على الفقراء والمعوزين لتقتدي به الأمة وتعرف انحراف الممارسات المالية التي كان يقوم بها الحكام الأمويين وولاتهم والمخالفة للأسس الإسلامية والقواعد الثابتة للإنفاق.

وجاء الحديث عن بناء الجماعة الصالحة التي أهتمَّ بها الإمام(عليه السلام) بل وسعى إليها الأئمة جميعاً، ورسم المعالم والملاحم اللازمة لها لتكون الطليعة الواعية المخلصة لتبني مسؤولية الإصلاح والتغيير.

بناء الجماعة الصالحة (الطليعة المؤمنة):

إنَّ إصلاح الأوضاع الاجتماعية يتوقف على وجود الجماعة الصالحة التي تقوم بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا سعى الأئمة المعصومين الى بناء الجماعة الصالحة ورسم المعالم اللازمة لها لتكون الطليعة الواعية والمؤمنة لتبني مسؤولية الإصلاح والتغيير طبقاً لمنهج أهل البيت (عليهم السلام).

وكان للجماعة الصالحة دور كبير في قيادة الثورات ضد الحكم الاموي على طول الخط كثورة أهل المدينة وثورة المختار وثورة التوابين، وكان لمجموعها دور كبير في إرساء دعائم منهج أهل البيت (عليهم السلام) وتعميقه وتجذيره في العقول والقلوب والممارسات السلوكية.

وسار الإمام محمد باقر(عليه السلام) في نفس الخطوات والطريق الذي سلكه آباءه الكرام في إعداد هذه النخبة الخيرة والطليعة المؤمنة وأستمرَّ في تشييد هذا الصرح ورفده بعناصر جديدة لتستمر الحركة الاصلاحية على منهج أهل البيت(عليهم السلام) وتقريره في واقع الحياة فقد ربَّى مجموعة كبيرة من الفقهاء المصلحين ومن طبقات شتى تنوعت مهامهم وتوزعت أدوارهم فمنهم الفقهاء ومنهم قادة الثورات ومنهم المصلحون الذين كانوا يجوبون الأمصار لنشر وتعميق منهج أهل البيت (عليهم السلام).

ولقد كانت المهمة الأساسية للإمام الباقر (عليه السلام) بعد العقود الثلاث من النشاط المستمر لأبيه الإمام زين العابدين(عليه السلام) هي رسم المعالم التفضيلية للجماعة الصالحة وبيان كل ما يلزم لتكوين المجتمع الاسلامي النموذجي.

وكان من أبرز مقومات نجاح مسيرة الطليعة المؤمنة وجود قيادة تقوم بالإشراف على حركتها وتبني التغيير الشامل وتقوم بتنسيق البرامج والخطط وتمدّها بالقوة الورحية والشحنة المعنوية على أن تكون هذه القيادة ربانية نصَّ عليها الله تعالى وأبلغها لرسوله محمد (ص) الذي أبلغها بدوره لأمير المؤمنين (عليه السلام) وتندرج الوصية حتى وصلت الى الامام الباقر(عليه السلام) ومنه تصل الى خاتم الأوصياء والأئمة(عجل الله تعالى فرجه).

ولقد اولى الامام الباقر (عليه السلام) الامام من بعده أهمية خاصة ووجّه أنظار أصحابه والطليعة المؤمنة خاصة إليها بشرطها وشروطها وخصائصها، فأعلن عنها تارة إعلاناً جلياً وآخر خفياً وكان الإعلان عن إمامة الامام جعفر الصادق (عليه السلام) مصحوباً بالسرية وفي نطق محدود لم يخبر بها إلا أصحابه المخلصين المقربين له وحينما سُئل الامام الباقر (عليه السلام) عن القائم من بعده بيده على أبي عبد الله جعفر بن محمد (عليه السلام)، وعن فضيل بن يسار أحد أبرز وجوه النخبة قال: كنت عند أبي جعفر (عليه السلام) إذ أقبل أبو عبد الله فقال: ((هذا خير البرية بعدي)).

وأدخل الامام الباقر (عليه السلام) الأمل في قلوب أصحابه واتباعه وجميع أفراد الجماعة الصالحة فأخبرهم بقرب زوال حكم بني أمية. وبالفعل بعد استشهاد الامام (عليه السلام) بثمانية عشر عاماً سقطت الدولة الاموية وانتهى حكم الامويين على يد بني العباس.

المصدر: الشيخ محمد هادي اليوسف الغروي، موسوعة التاريخ الاسلامي